اسم الدرس : تفسير سورة الرعد (٢) | الآيات [٢ : ١٠]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**

**بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.**

**نستكمل بإذن الله مجالس القرآن مع سورة الرعد، كنا قد تكلمنا في المرة الماضية عن مقدمة عن السورة من حيث الاسم، والموضع أو الموضوع و النزول، مع كلام سريع عن الحروف المقطعة في أول السور.**

ثم تكلمنا في أول آيتين، وتوقفنا عند قوله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} (الرعد: ٢) وقلنا إن المعنى قد يختلف أو يزداد ويتنوع حسب الإعراب، وقلنا إن من أعرب {يدبر الأمر} خبرًا للفظ الجلالة {الله} سيكون المعنى مختلفًا عن من أعربها جملة مستأنفة وبداية جديدة.

وفصَّلنا وقلنا إنها لو أعربت خبرًا سيكون المراد بأن الله تعالى الذي من صفاته أنه أنزل وسخر واستوى وفعل كل هذه الأمور العظيمة وأتقن الكون المحكم الدقيق أنزل كتابًا فكيف بكتابه؟! أي: إذا كان هذا هو الكون، فالله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، حينما يتكلم بكلام ورسالة ينزلها لأهل الأرض فكيف بهذا الكتاب؟ بالطبع سيكون هذا الكتاب في قمة الدقة والإحكام والإتقان، فكما خلق الله تعالى كل هذا الخلق بقدرته وعلمه، فقد تكلم أيضًا بهذا الكلام حقيقةً -أي القرآن الكريم-.

وقلنا إن البعض يعيد الكلام على قدرته تعالى على الخلق.

وكانت آخر نقطة توقفنا عندها بسؤال سألناه، ما العلاقة بين دقة إحكام وإتقان الكون وبين دلالة هذا على البعث؟ أي ما علاقة ختام الآية بقوله تعالى: {لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} (الرعد: ٢)؟

قلنا إن الآية تتكلم عن نوع من الإتقان والإحكام والدقة للخلق، فما العلاقة بين ذلك وبين البعث خاصةً أن هذا الأمر قد تكرر كثيرًا في القرآن؟ غالب ما وجدت في كلام المفسرين في الربط بين هذين الأمرين أن الله الذي أتقن الكون وأحكمه لا يعجزه أن يبعث الناس؛ لذلك نجد أن الكلام عن البعث دائما إما أن يكون عن القدرة أوعن العلم؛ فبالعلم يعلم ما تفرق من أجزاء الجسد لا يغيب عنه شيء {يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨) ، وبالقدرة يفعل ما يشاء سبحانه وتعالى، ويأمر الأجزاء المتفرقة كوني بين يديه سبحانه، فتكون، فيقف الإنسان بين يديه سبحانه.

فالذي بقدرته وعلمه خلق هذا الخلق لا يعجزه أن يبعث الإنسان، {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (غافر: ٥٧) ، فكثرة التدبر والتأمل في الخلق تجعل الإنسان يقبل قضية البعث بسهولة، وهذا من الأسلوب القرآني العجيب، وأسأل الله أن ييسر لنا الحديث عن مفارقة الأسلوب القرآني في تقرير العقائد عن الأسلوب البشري، فالقرآن له طريقة مختلفة في تقرير العقائد عن الكلام البشري منها:

- أن القرآن يجعل القضية التي هي محل إنكار من الآخر، يجعلها قضية بدَهية، وهذا نجده في الآية {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد: ٥) فيجعل العجب من كلامهم عن البعث، وليس من قضية البعث نفسها، أي: قلب عليهم الدليل، فهم يتعجبون من البعث، فيكون الرد عليهم أن الأعجب هو كلامكم، لأن هذا الأمر بدَهي؛ فالذي خلق وأحكم ودبر وأتقن وأنزل من السماء الماء ومدَّ الأرض وفعل ذلك قادر على أن يبعث الخلق.

كثير من المفسرين قال إن تلك الآيات فيها قدرة، وإرادة وهذا الملمح تحديدًا نراه في سورة الرعد، وسوف نذكر من أين جاء التركيز في سورة الرعد على قضية الإرادة، وليست القدرة وحدها؛ أنه يفعل ما يريد، ويفعل ما يشاء سبحانه وتعالى، وهذا سيأتي معنا في الحديث عن قوله تعالى: { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الرعد: ٤)

إذًا نقول إن كثيرًا من المفسرين قال الرابط بين دقة وإحكام وإتقان الكون وبين البعث هو القدرة، ويضيفون أيضًا صفة العلم، وصفة الإرادة.

يَمكن أن نقول أيضًا كمحاولة للربط -والله تعالى أعلم- عندما تتفكر في خلق الكون، وتجده في قمة الدقة والإحكام، بالتأكيد ستسأل نفسك لا بد من وجود غاية، فعندما تتأمل في آيات التدبر في سورة آل عمران { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران: ١٩١) تقول: لا بد من وجود غاية وحكمة من تلك الدقة والإتقان والإحكام، فهو لم يُخلق عبثًا، فكل شيء في الكون مصمم بصورة عجيبة.

هناك بعض القضايا التي تقف كالغصة في حلوق الملحدين منها قضية دقة وإحكام وإتقان الكون، ومنها قضية الأخلاق والفطرة داخل الإنسان، ومعيار الصواب والخطأ، وأنه يلفظ أشياء من داخله، وينكر أشياء مثل: قضية القتل والسرقة ورؤية أنها أفعال قبيحة.. فمن أين أتوا بمعيار الخطأ والصواب إلا إذا كان قد وضع ذلك المعيار؟

فلو كانت الحياة خلقت عبثًا إذًا لم يكن هناك معيار للخطأ والصواب وكان كل من أراد فعل شيء يفعله –وقد تكلمت عن هذه القضية في مقدمة سورة القيامة ويمكن الرجوع إليها، فقلت إن وجود النفس اللوَّامة من أدلة البعث–.

فهؤلاء الملحدون يعتبرون إتقان وإحكام الكون مشكلة، ويطلقون عليها "مشكلة الضبط الدقيق"، بينما الأمر بالنسبة لنا شيء طبيعي وبدَهي أن الله تعالى بحكمته لا يخلق شيئًا عبثًا، حتى أنهم يقولون على دقة الإحكام للكون "وكأنه مصمم"، وهو بالفعل كذلك قال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨).

والقرآن في كثير من الأحيان قد لا يأتي لنا بتفاصيل الدليل الذي ترد به على المبتدع، ولكنه يشير إليها، لذلك كثيرًا ما يشير الله تعالى في القرآن إلى فكرة "تدبروا في الخلق" وأعطى لنا الأمثلة على ذلك، فلذلك الاطلاع على بعض الكتب التي تتحدث عن دقة وإحكام وإتقان الكون مهم، فهذا مما يزيدك يقينًا، عندما تقرأ وتتأمل مثلاً في خلق الإنسان والعضلات والأعصاب والخلايا، وهناك من ألَّف كتابًا سماه (التوقيع في الخلية) وكأن هذا أمر في قمة الدقة الإتقان، وهناك الكثير من المؤلفات أُحيلكم إليها في نهاية المحاضرة ترد على شبهة أن الكون خلق عبثًا، لأن هذا ما يريد هؤلاء الهروب إليه.

نعود مرة أخرى للسؤال الذي كنت أسأله عن أوجه الربط بين دقة وإحكام وإتقان الكون وبين البعث..

عندما تتأمل في الكون تقول لا يمكن أن يكون خُلق عبثًا، ولكن في نفس الوقت قد تجد عندك نوعًا من التناقض بين دقة الكون وإحكامه وبين البعث، فتجد أن كل شيء حولك في الكون في قمة الضبط حتى أن أحد العلماء يدعى (مايكل دنتون) ألف كتابًا سماه (صانع النار) يتناول فيه الضبط المتناهي في عملية اشتعال النار، وما تحتاجه العملية من ضوابط ولوازم كثيرة، كتيب يشرح فقط عملية إشعال النار، وهو نفس كاتب كتاب (التطور نظرية في أزمة).

والخلاصة أننا مهما شرحنا مدى دقة تناسب الطعام مع معدتك وتناسبه مع الهضم والإنزيمات وإنتاج الطاقة.. ليس فقط متقن بل أيضًا متناسق، الذي يفكر أن كل شيء صنع بمفرده فكيف حدث هذا التناسق بينهم؟ – تعالى الله عما يقولون –.

عندما تتأمل ما يحدث بين البشر تجد ظلمًا وقتلًا وسرقة وطغيانًا قد يحدث عندك نوع من التناقض، فتجد أن البعض يتعجل في الحكم عندما يرى الشر في الكون ويقول لا يوجد للكون إله!

فتقول له: كيف لا يوجد إله؟!

يقول: بسبب تلك الشرور من قتل وظلم وغير ذلك..

فتقول له: كيف لا يوجد إله مع كل هذا الإتقان في الكون من حولك وفي خلقك وجسدك؟ فليس معنى رؤيتك لشيء لا تفهم مغزاه أن تنكر كل هذا الضبط والإتقان.

لذلك من أجل أن يكتمل إحكام وانضباط الكون فلا بد من يوم القيامة؛ فالذي خلق الكون في قمة الدقة والإحكام لن يترك الناس عبثًا؛ فليس من المعقول أن يخلق الله تعالى كل شيء في الكون بتلك الدقة والإحكام والإتقان، وفي عينك كيف ترى وفي رئتك وغيرها من التفاصيل { مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} (لقمان: ٢٧) ، وفي كل مرة يتقدم العلم يزداد انبهار العلماء بكل التفاصيل من حولنا، يكفي دقة المخ البشري الذي نفكر به وأن معظم التفاصيل داخله غير معروفة حتى الآن من كيفية التفكير وكيفية الإدراك وأشياء أخرى كثيرة، إذًا فليس من المعقول أبدًا أن صانع كل هذا يترك هذا الظلم بدون مجازاة!

فبعض الناس يتعجلون ويقولون كيف يترك الله الظلم والطغيان؟ نجيب بأن الله تعالى سيبعث الناس للحساب يوم القيامة، فنحن نحمد الله تعالى أول ما نحمد في القرآن بأنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه مالك يوم الدين؛ فأنت تحمد الله أنه لم يترك الناس عبثًا ولكن سيبعثهم ليوم الدين، وأنه وحده مالك ذلك اليوم، وهكذا تكتمل الصورة، ويكون هذا –والله أعلم– أحد أوجه الربط.

ولذلك تجد في نهاية سورة آل عمران عندما تأملوا في خلق السموات والأرض قالوا: { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران: ١٩١)، فربطوا مباشرة بين الإحكام وبين يوم

القيامة مؤكدين على وجود يوم لحساب الخلائق، فكما أن الكون متقن فنحن أيضًا لم نخلق عبثًا، وهذا نجده واضحًا في الكثير من آيات القرآن.

{ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} (القيامة: ٣٦)، فيربط مباشرةً بين تلك الحقيقة؛ وهي أنك ستحاسب أيها الإنسان لأنك لم تُخلق عبثًا لتلهو في الكون فقط.

وهكذا فقد تكلمنا في أول نقطة في درسنا اليوم حول العلاقة بين ضبط وإتقان الكون وبين البعث، وأنها علاقة مطردة.

{لعَلكُم بلِّقَاءِّ ربكُمْ توقنونَ} (الرعد: ٢) إذًا فأنت لم تصدق فقط، بل أنت توقن؛ فالإنسان كلما تدبر وتفكر أكثر في خلق السماوات والأرض ازداد يقينًا، {لعَلكُم بلقَاءِّ ربكُمْ توقنونَ}(الرعد: ٢).

{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا} (الرعد: ٣). {مَدَّ الْأرضَ} أي: جعل فيها نوعًا من البسطة –أي: مبسوطة وممهدة– ليستطيع الإنسان أن يسير عليها، بالرغم من أنها مكورة ومليئة بالصخور إلا أن الله تعالى يسَّر السير فيها فجعلها ذلولًا، فيستطيع الإنسان أن يسير فيها.

{وَجَعَلَ فِّيهَا رواَسِّيَ} (الرعد: ٣) أي: ثبتها فجعل فيها رواسي.

{وَأَنْهارا} ما علاقة الرواسي بالأنهار؟ يقول بعض العلماء: إنه قمة التضاد، بين الماء السائل والصخور الصلبة.

وقال البعض: إن الجبال سبب في جريان الأنهار وتبخرها، واصطدام السحب بالجبال لإسقاط الأمطار، فاستنتج العلماء في العلم الحديث العلاقة بين الجبال، وبين سقوط المطر.

{وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} (الرعد: ٣) بعض المفسرين قال إن الآية لا تقرأ هكذا، وإنما تقرأ {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} (الرعد: ٣) ثم تقف وتبدأ {جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} (الرعد: ٣) ، وبعض المفسرين قالوا لا بل {وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} هي بداية لجملة جديدة؛ أي أن بعضهم قال بأن {وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} (الرعد: ٣) معطوفة على {رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا}، فالله سبحانه وتعالى جعل رواسي، وجعل أنهارًا، وجعل من كل الثمرات، ثم تقف، ثم تبدأ وتقول أيضًا {جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} (الرعد: ٣).

بعض المفسرين خاصةً ابن عاشور من المتأخرين –وكان هذا شيئًا عجيبًا أنه من المتأخرين ويتبنى هذا القول، وسأقول لماذا– نصر هذا القول بقوة أن تقف على {الثمَراتِّ} ثم تقرأ {جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} (الرعد: ٣)، المفسرون كانوا يذكرون القولين، ولكن يميلون إلى الوقف على {أنهارا} والبدء بـ {الثمرات} فيكون لفظ الزوجين عائدًا على الثمرات.

فما الذي جعل بعضهم يقول بأن {ومن كل الثمرات} لها علاقة بـ {جعل}؟

فكانوا يقولون أين التزاوج في الثمرة؟ فهم كانوا يرون التزاوج بين الذكر والأنثى في الإنسان، وفي الحيوانات، لكن لا يرونه في النباتات؛ فلذلك المتقدمون فسروا كلمة { زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} ليست ذكرًا وأنثى، وإنما يفسرونه؛ حامض وحلو، أي: المتقابلات الموجودة في الثمار، فقالوا { زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} أي تقابل وتضاد، أو أنواع، أو أصناف.

بعض المتأخرين قالوا إن العلم الحديث أثبت أن الزهرة الواحدة، أو الثمرة قد يكون فيها الذكر والأنثى، وقضية التلقيح كما أنها موجودة في عالم الحيوان، أيضًا موجودة في النبات، فزوجين أيضًا موجودة في النبات، لذلك من يرجح هذا القول يرى أن تقول: { وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } (الرعد: ٣) .

إنما ابن عاشور قال: إن معنى الآية ليس كما ذكر المفسرون؛ وإنما المراد أن الله جعل رواسي جبال، وجعل الأنهار، وجعل من كل الثمرات، وتقف، ثم تقول: وأيضًا { جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ }(الرعد:٣) أي: الذكر والأنثى، أي ليس لها علاقة بالثمرات، وهذا هو الفرق بين القولين يكون حسب الوقف؛ لذلك الإمام عندما يقف أحيانًا وقف معين يكون له معنى، وهذا أمر هام أن يتعلم الإمام التفسير، وعلم الوقف، والابتداء؛ لأن وقفك على الآية بطريقة معينة يعطي لها معنى مختلفًا.

{ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } (الرعد: ٣). كنا قد تكلمنا في الدرس الماضي أن الله تعالى جعل آية الليل والنهار مع الآية التي تتكلم عن الأرض، وجعل الشمس والقمر في الآية التي تتكلم عن السماء، وذكرنا سبب ذلك المرة الماضية.

بعض المفسرين قال هنا هناك ملمح جميل أنه يوجد هنا ترابط بين الثمار وبين الليل والنهار، وأن التقليب والمخالفة بين الليل والنهار أو المزاوجة بين الليل والنهار تفيد في نمو الأزهار، وأن الأزهار والثمار أحيانًا تحتاج لفترة من الضوء، وتحتاج لفترة من الراحة.

{ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } (الرعد: ٣) أي: كما أن الله سبحانه وتعالى جعل التعاقب بين الليل والنهار مفيدًا للإنسان فأيضًا هو مفيد للثمار، فهذه سُنة؛ كما أن البدن يحتاج إلى راحة كذلك بعض الثمار تحتاج إلى راحة من ضوء الشمس، وتحتاج أيضًا إلى فترة من فترات النشاط.

{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ } (الرعد: ٣) ليست آية واحدة، لكن لمن؟ { لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (الرعد: ٣) لذلك نحن نحتاج أن نقرأ في تلك القضية -وهي التأمل في خلق الله-، على سبيل المثال أي كتاب بسيط يتكلم عن تفاصيل جسم الإنسان ليس من الضروري أن تقرأ كتابًا معقدًا، اقرأ شيئًا عن القلب، أو عن الرئة، أو عن العقل، أو عن العضلات، مجرد أن تشاهد كتاب تشريح وتشاهد بعض الصور، شاهد صورًا للعضلات والشرايين والأوردة، وكيف تسير الأعصاب داخلها وكيف تخترقها، وكيفية الانقباض والانبساط في العضلة بدقة، ووجود أكثر من عضلة -سبحان الله العظيم!-، هذا هو الظاهر لنا، وكلما تقدم العلم يفاجأ العلماء أن الأمر غير متناهي، ومع اكتشاف ميكروسكوب أكثر تطورًا يكتشفون أن الأمر داخليًا أكثر تعقيدًا، حتى الدم الأحمر الذي تراه مليئًا بالمواد، وأي تغير في أي مادة يمكن أن يحدث تخلطًا ويموت الإنسان -سبحان الله العظيم!-.

{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (الرعد: ٣) ، صيغة المضارع تدل على أن الأمر يحتاج أن يكون بصورة مستمرة.

{وَفِي الْأَرْضِ}. لاحظوا كيف رسمت الصورة مع بداية الآيات: في البداية السماء بارتفاعها، ثم قربنا الصورة أكثر على الأرض، فأخذنا من وسط المجرات كلها، والشمس والقمر والكواكب أخذنا صورة الأرض عمومًا، وتكلم الله تعالى عن الليل والنهار، والثمرات وكل الأرض، ثم نأخذ جزءًا أكثر تحديدًا من الأرض.

{ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ } (الرعد: ٤) أي: أجزاء متجاورة. {وَجَنَّاتٌ}. الله تعالى يقول لك إن القرآن يساعدك كيف تتفكر؛ أي إذا ذهبت إلى مكان خلوٍ لتتدبر.. في النظرة الأولى انظر على المشهد ككل: السماء، والألوان، ومشهد الغروب، والأرض، والزرع، فتنظر على المشهد متكاملًا، فتقول:

سبحان الله! ثم تأخذ بعد ذلك جزءًا أضيق من الأرض التي أمامك، أو تأخذ السماء تنظر إليها فترة بمفردها، وتتأمل، وتقول: سبحان الله! ثم إذا نظرت إلى جزء الأرض فتتفكر في قوله سبحانه وتعالى: { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا } (الأنعام: ٥٩)، ثم تنظر على جزء من الأرض، وتقول كيف تخرج الأرض الطينة السوداء الورق الأخضر والثمرات الصفراء والحمراء؟! وكيف تُخرج طعومًا مختلفة وفاكهة مختلفة؟! وهذه هي طريقة التدبر أن تأخذ في البداية صورةً كليةً ثم تأخذ جزءًا ثم تتأمل داخل هذا الجزء، فالله تعالى يقول لك {وَفِي الْأَرضِّ}، ثم يقترب الحديث منك حتى يصل إلى داخلك {وفي أنفسكم}.

{وَفِي الْأَرضِّ قِطعٌ مُّتجَاوراتٌ} (الرعد: ٤). وبالرغم أنها متجاورات أي: بجانب بعضها البعض، لكن هي عبارة عن جنات مختلفة من أعناب وزرع ونخيل، بعضهم قال: إن الأعناب هو النبات الذي يتسلق، والزرع هو الأوراق، والنخيل هو الساق الطويلة في السماء، هؤلاء ثلاثة أنواع من الزروع: الأعناب، وزرع، ونخيل.

حتى لو أخذنا صنفًا واحدًا وهو النخيل، فالأرض زرع وفيها نباتات، والنباتات أنواع: أعناب، وزرع، ونخيل، والنخيل نفسه يمكن أن يكون صنوان وغير صنوان، فتخرج من النبتة الواحدة أكثر من ثمرة، (صنو الشيء) هو المقارن له، مثل الجد ينجب ولدين، ثم تكون أنت، فيكون أحدهم أبوك والآخر عمك، فالعم هو صنو الأب لأنه خارج من نفس النبتة، فكذلك النبتة قد يخرج اثنين من أصل واحد فيكون النخيل صنوان، أو غير صنوان، فانظر إلى التنوع، مختلف في الأشكال، مختلف في الألوان، مختلف في العدد، مختلف في الطعم { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} (الرعد: ٤)، فكل هذا الاختلاف وهم بجوار بعضهم، وهي أرض طينية، وماء وبذور، من الذي أوجد كل هذا التنوع؟!

لذلك العلماء يقولون لا بد من إرادة، لذلك عقديًا أو كلاميًا لا يوجد ترجيح بدون مُرَجِّح، فليس هناك شيء يأتي صدفة، فما الذي جعل هذا الشيء بتلك الصورة وغيره بصورة مختلفة؟! ستقول صدفة! وما الذي يجعلها كل مرة بنفس الطريقة؟ ما الذي يجعل تلك الشجرة شجرة تفاح، وهذه شجرة مانجو، وهذه شجرة فراولة، والأخرى بطاطس؟ وكلها متناسقة مع أكل الإنسان ومعدته، من الذي أبدع كل هذا وأوجد هذا التنوع الرهيب؟ ومن رحمة الله كما أن فيها قدرة وإبهار فيها أيضًا نعمة ورحمة ومودة أن تأكل طعومًا مختلفة وتفضل بينها في الأكل، { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } (الرعد: ٤) الصورة ظلت تقترب حتى وصلت لأنك تتذوق الطعم.

{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الرعد: ٤)، فمَن عنده أدنى عقل سوف يشاهد هذا الإبداع.

فإذا كان التأمل في الأرض الواسعة يحتاج إلى تفكر، فكيف لا تلاحظ الاختلاف بين طعم المانجو والبطاطس؟!

ألا تلاحظ أنك بمجرد أن تغمض عينيك تستطيع أن تُميز بين الطعم؟ { إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الرعد: ٤)، ألا تلاحظ أثناء النظر إلى الأرض الزراعية الواسعة الألوان المختلفة والثمار المختلفة والأشكال المختلفة؟ فتفكر كيف حدث هذا!

{فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الروم: ٥٠) ، الله يقول لك أحضِر صورتين واقسمهما، صورة الأرض قبل أن تزرع وهي سوداء، وصورة بعد زراعتها، انظر وتأمل في الصورتين وتفكر، من الذي فعل ذلك؟

{فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الروم: ٥٠). فأنت تحتاج أن تتأمل في الكون كثيرًا، تحتاج أن تفكر من الذي فعل كل هذا؟ ما هي القدرة التي صنعته والإرادة؟ وهل كل ذلك عبث؟

{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الرعد: ٤).

الغريب في أسلوب القرآن –وسوف ندندن حول هذا الأمر كثيرًا في سورة الرعد وكأننا سنأخذ سورة الرعد كنموذج تطبيقي لأسلوب القرآن المختلف–، فالقرآن يتناول القضية التي هي محل إنكار ويتكلم فيها بقمة الثقة، وكأن هذا الأمر طبيعي وبدَهي. تأمل معي كيف بدأت السورة، واستحضر السياق، {المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} (الرعد: ١).

فالسورة لم تبدأ بالدفاع عن الوحي ولا أن هناك من ينكره في حين أن هذا الوحي حق وهكذا.. لا؛ إنما بدأت أن الوحي حق، وقلنا أن الألف واللام في كلمة (الحق* تفيد الكمال والانفراد، وهذه بداية قوية، ثم بعد عدة آيات يقول الله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} (الرعد: ١٩) وكأن الله تعالى يصف من ينكر الوحي بالأعمى، تأمل تصاعد القوة في الخطاب!

ثم ذكر الله تعالى بالرغم أنه هو الحق، إلا أن هناك الكثير لا يؤمن به، ثم تركت هذا الملف، وفتحت ملفًا آخر لدرجة أنك قد تعتقد أن هذا موضوع آخر، ثم طوفت بك في الكون، أي ترك مشهد المنكرين للوحي بالرغم أنه حق، ولم يذكر القرآن لماذا رفضوه، ولا كيف سنرد عليهم، فكأن هذا الملف أُغلق تمامًا، ثم بدأ في الحديث عن قضية جديدة، لذلك قد تظن أن هذا موضوع جديد، وهو آيات الله في الكون، فبدأ الكلام عن السماوات والأرض عمومًا وجزء من الأرض، ثم أخذ يترقى في الكلام: { لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} (الرعد: ٢)، ثم {يتفكرون} (الرعد: ٣)، ثم {يعقلون} (الرعد: ٤). ثم هناك رجوع مفاجئ لنفس القضية: قضية الإنكار، لكن هذه المرة قضية إنكار البعث.

وهنا نسأل هل يمكن أن يكون كفرهم بالوحي بسبب خوفهم من مسألة البعث؛ أي لا يريد الحساب؟! فهو عندما ينكر البعث ويرفض الوحي السبب الرئيسي أنه لا يريد أن يُبعث، ويخاف من الحساب، كما شرحنا في أول سورة القيامة. (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣)) فهو يعتقد أن الله تعالى غير قادر أن يبعث العظام { بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)}، لكن المشكلة الحقيقية عنده هي: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥)}، فالسبب الرئيسي لإنكار الوحي هو رفضهم للبعث، وأنهم لا يريدون المحاسبة على أفعالهم.

العجيب أن القرآن عندما عاد لمسألة البعث، لم يذكرها في صورة معادلات، أو مقدمات منطقية مثلاً: وبما أن الله خلق السموات، وخلق الأرض، وفيها تنوع إذًا هو قادر على أن يبعث الإنسان. كلا! ولكن قال الله تعالى: هل تتخيل أن هناك أناس ينكرون البعث؟!

فإذا تعايشت مع الآيات تندهش من إنكار هؤلاء للبعث، وكأن الله تعالى يقول لك إذا أردت أن تتعجب من شيء، فالعجب حقًا هو قولهم {أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (الرعد: ٥)، فالبعث تبين أنه أمر بدَهي وفي قدرة الله سبحانه وتعالى.

هنا في قراءة حفص أدخلت الاستفهام على النصف الأول والنصف الثاني {أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (الرعد: ٥). مسألة قولهم لإنكار البعث بصورة الاستنكار أو الاستفهام أو استفهامين أتت تقريبًا في أحد عشر موضعًا في القرآن، بعض القراء يضعون الاستفهام في الأول وفي الثاني –طبعًا هذا ورد إليهم نقلاً– أو الاستفهام يكون في الأول فقط، أو الاستفهام يكون في الآخر.

حفص هنا قرأ الاستفهامين في الأول وفي الثاني الثاني {أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (الرعد: ٥) تكرار الاستفهام زيادة في الاستنكار، أي: هل يعقل بعد أن نتحول إلى تراب، أيعقل أن نبعث مرة أخرى؟!

هم لا يجدون وسيلة ينكرون بها البعث؛ لذلك أرادوا استبعاده تمامًا، مثل ختام سورة "يس" { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (الرعد: ٧٨) شخص يريد أن ينكر البعث، ويريد أن يظهر الأمر بين الناس، فأحضر عظامًا وبعد أن أصبحت رفاتًا فتتها، ووقف بين جمع من الناس فنفخها وطارت في الهواء، قائلاً لهم: كيف يعيد هذه الله مرة أخرى؟!

فترد عليه بمنتهى البساطة باصقًا في كفك وتقول له: ألم يخلقك الله تعالى من مثل هذا؟! ألم تكن نطفة من مني يُمنى؟! أليس الذي خلقك من مثل هذا قادر على بعثك؟!

وفي هذا الحديثِّ يقولُ بسرُ بنُ جَحَّاشٍ القرشيُّ رضِّيَ اللهُ عنه: " بزقَ النَّبيُّ صلّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ في كفِّه"، أي: تفَلَ وبصَقَ بعضَ ريقِّه ولعابه في كَفّ يدِّه، "ثمَّ وضَعَ أصبعَه السَّبابةَ "، أي: أشار بالسَّبابةِّ إلى البصقةِّ، وقال: "يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ : أنَّى تُعْجزِّني يا ابنُ آدمَ وقد خلقْتك مِّن مثلِّ هذه!"[١]

لذلك لما تعجب سيدنا زكريا عليه السلام كيف يرزق الولد بعد هذا العمر فقال له الله تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} (مريم: ٩) ففيمَ العجب؟!

كما تعجب الناس من معجزة أن يأتي سيدنا عيسى بغير أب، وفي الأصل أن يأتي الإنسان من أب وأم أليست معجزة؟!

[١] [عن بسر بن جحاش القرشي:] بزقَ النَّبيُّ صلّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ في كفِّه، ثمَّ وضعَ أصبعَهُ السَّبّابةَ وقال: " يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أنّى تُعجِزُني ابنَ آدمَ وقد خلقتُكَ من مثلِ هذِهِ، فإذا بلغت نفسُكَ هذِهِ وأشارَ إلى حلقِهِ قلتَ: أتصدَّقُ، وأنّى أوانُ الصَّدقةِ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٢٢٠٥ • حسن

وتتبع اللحظة الأولي من خروج المني من صلب الإنسان واستقراره في الرحم، وتفاصيل التفاصيل التي تكتشف كل فترة أليس هذا بإعجاز؟! ففيمَ العجب؟ لذلك يقول الله تعالى: { وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ} (الرعد: ٥) لو أرادوا أن يدهشوا الناس، ويبثوا بينهم العجب من البعث، يقول الله تعالى بل الأعجب هو قولهم نفسه.

{ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد: ٥)، وهنا يأتي الحكم عليهم من القرآن فيتجاوز قضية الإثبات لإصدار الأحكام؛ فالقرآن لا يظل يتكلم كثيرًا في قضية هي من المفترض أن تكون بدهية، بل سيتكلم عن تبعات إنكار هذه القضية..

{أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد: ٥)،كلمة {أولئك الأغلال} جاءت في المنتصف هنا بصورة عجيبة جدًا، مما جعل بعض المفسرين يقولون إن الأغلال هنا معنوية لأنها مرتبطة بالنصف الأول -أي الكفر-، وبعضهم قال إن الأغلال هنا حسية لأنها مرتبطة بالنصف الثاني -أي النار-.

الكفر هنا شيء معنوي، فإذا كانت الأغلال مرتبطة بالجزء الأول من الآية إذًا تكون الأغلال معنوية، فيكون المراد أنه منع نفسه من التفكر، منع نفسه من التدبر، وسبب كفره {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك: ١٠) لأنه لو كان يسمع أو يعقل لما كان من أصحاب السعير؛ لأن الآيات في قمة الوضوح.

فبعضهم قال إن الأغلال هنا بالمعنى المعنوي: أي صُرفوا عن رؤية كل هذه الآيات فليست القضية في عدم وضوح الآيات، وإنما القضية أنهم صُرفوا عن ذلك.

وقال آخرون إن الأغلال مرتبطة بالنار دليل على أن لهم عذابًا مخصصًا، وسلاسل وأغلال مخصصة في النار -والعياذ بالله-، أي أن الله تعالى قدم العذاب المخصص لهم -سلاسل وأغلال- في النار، ولهم أيضًا عذاب النار عمومًا، فهؤلاء الذين كفروا وأنكروا قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة لهم عذاب وأغلال في النار جزاءً وفاقًا لأنهم صرفوا عقولهم.

قال بعض العلماء: وما الرابط بين العقاب وبين الجريمة؟ -العقاب الأغلال والجريمة الكفر-، قالوا أن الرابط هو: وكما صُرفت عقولهم عن التدبر فكأنها في أغلال، فكذلك كانت العقوبة أن لهم الأغلال في الأعناق في النار -والعياذ بالله-.

وبعضهم قال معنى جميلاً أشار إليه القاسمي قال: "كما اتهموا ربهم أن يده مغلولة لا يستطيع أن يفعل هذه الأمور فغلت أعناقهم -والعياذ بالله-"، فكما اتهموا الله أنه ليس بقادر عوقبوا بهذا العقاب في النار.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ} (الرعد: ٥) لم يقل بالله بل قال بربهم؛ أي: بخالقهم، بمدبر أمورهم، بالذي أنزل عليهم النعم.

{أولئك} إشارة كأنهم انفصلوا عن الناس ووُضِعُوا في مكان يشار إليهم ليأتي الأمر الحسي {وَأولئك الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ و أولئك أَصْحَابُ النارّ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد: ٥).

تجد أن القرآن أيضًا من أساليبه أن فيه نوع من المراوحة، أي: لا يأتي بالرد المباشر على الشبهة، كأن يطرح الشبهة ثم يأتي بالرد عليها مباشرة، وهو ما يسمى بالأسلوب الهندسي في الحوار، لا ليس كذلك، القرآن ليس كذلك؛ فهو يأتي بجزء من الشبهة، ثم عدم الرد المباشر، ثم آيات قدرة، ثم ذهاب للدار الآخرة، ثم عودة لمقالات لهم في الدنيا، ثم العودة مرة أخرى لآيات قدرة لكن هذه المرة عن العلم، ثم آيات تخويف، ثم انتقال للدار الآخرة، ثم عودة مرة ثانية للدنيا، ثم الحديث عن سنة من السنن الكونية.

وكأن القرآن يقرع لأبواب القلوب المختلفة، فتستسلم في النهاية، وهذا هو التصريف، أو التنويع، وهذا الأسلوب أحيانًا قد يفيد، فهنا مثلاً أنك بعد أن استنكرت واستقبحت الجريمة واستحضرت منظرهم في النار تعود مرة أخرى فتجد أنهم ما زالوا يكملون ويقولون: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} (الرعد: ٦)، كان من المتوقع مثلاً بعد الآيات الماضية يتوبون إلى الله.. لكن لا! بل تجد الآيات: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ}(الرعد: ٦)،

فبدلاً من أن يتوب ويتفكر في الخلق ويتدبر، ويقول هذا الخلق المحكم المتقن بالتأكيد له حكمة وله غاية وليس مخلوقًا عبثًا، بالتأكيد هناك إله وبالتأكيد هناك غاية من هذا الخلق، بدلًا من أن يتفكر ماذا فعل؟ جاء للنبي صلى الله عليه وسلم يستعجل بالعقوبة قبل الحسنة!

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} (الرعد: ٦) بعضهم قال إن هذه الآية تشير إلى قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الأنفال: ٣٢) أي: بدلاً من أن يتوبوا ذهبوا للنبي صلى الله عليه وسلم يقولون أنزل علينا العذاب إذا كنت صادقًا، فكان أول طلب يطلبونه بعد تفصيل الآيات هو الاستعجال بالعذاب!

وهذا التصرف يجعلك كمؤمن تكتسب مشاعر بغض الكفار من القرآن وهذا مهم، وإلا فما الذي يجعل إنسان يسمع أو يقرأ لشخص يطعن في قدرة الله ولا يغضب؟!

لأنه غير مستحضر لعظمة الله، كما جاء في الأثر -وإن كان به ضعف سندًا لكنه مشهور في كتب التفاسير وبعضهم قال بأنه يُمَر- أن أبا بكر لما سمع أحد المشركين يقول: "يد الله مغلولة" لطمه، ولم يتحمل!

فانظر كيف كان الصحابة والسلف يغضبون لله، بل على العكس ترك السنن فقط كان يجعلهم يغضبون!

فما الذي يجعلك تقرأ كتابًا مليئًا بأفكار كفرية وطعن في قدرة الله بنوع من البرود المعرفي؟ لأنك لا تعيش هذه المشاعر القرآنية، فإذا كنت تعيش هذه المشاعر فستغضب، فتجدهم بعد كل تفصيل هذه الآيات يذهبون للنبي صلى الله عليه وسلم ويطلبون إنزال العذاب بدلاً من التوبة، فتزداد بغضًا لهم، وتجد نفسك تستحضر قول الله تعالى في سورة الأنعام: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} (الأنعام: ١٤٧)، فتقول إن الله رحيم لأنه أمهلكم، ولم ينزل عليكم العذاب.

يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم العذاب، بالرغم من أن آثار العذاب محيطة بهم في جزيرة العرب، فإذا كنت غير مصدق، انظر إلى آثار العذاب {وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} (الرعد: ٦)، فأصبحوا يُضرب بهم المثل. آثار ديار قوم صالح أو ثمود أو غير ذلك من قوم لوط، أو الفراعنة، فالآثار الموجودة تجعل الإنسان يخاف، {وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} (ابراهيم: ٤٥).

فآثار التعذيب باقية، وآثار الأقوام أين هم الآن؟! {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} (مريم: ٩٨).

{وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} (الرعد: ٦).

وبالرغم من كل هذا لم يكتفوا بالنظر في الكون أو بالنظر في آثار السابقين التي تجعلهم يخافون من الله سبحانه وتعالى، بل بالعكس {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} (الرعد: ٦).

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} (الرعد: ٦).

{المثلات} جمع مثل: الصَدُقات جمع صدُقة، وتعني العقوبة الشديدة لدرجة أن يُضرب بها المثل في شدتها، فليست أي عقولة يضرب بها المثل، فإذا أردت أن تخيف أحدًا تقول له سأفعل بك مثل فلان.

ثم يقول الله تعالى {وَإِنَّ ربكَ لذُو مَغفِرةٍ للناسِّ عَلىٰ ظلْمِّهِمْ } (الرعد: ٦). العلماء وقفوا عند هذه الآية، فالآية هنا تخاطب المشركين، إذًا {على ظلمهم} المراد به الشرك. فبعضهم توقف وقال كيف نجمع بين {وَإِنَّ ربكَ لذُوَ غفِّرَةٍ للناسِّ عَلىٰ ظلْمِّهم} (الرعد: ٦) هنا وبين الآية الأخرى عندنا في القرآن { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ} (النساء: ٤٨)؟ اختلاف المفسرين يكون لأسباب؛ منها مثلاً اختلاف الآثار الواردة، أو اختلاف اللفظ أو المعنى، أو وجود محذوف في السياق، فلا بد من وجود سبب جعلهم ينقسمون.

هنا كلمة مغفرة مع ظلمهم، والظلم هنا في سياق الشرك جعلهم يقولون إن المراد بالمغفرة هنا بمعنى {يغفر الذنوب}، وقال البعض إن المراد بالمغفرة هنا ليس مغفرة الذنوب.

القول الأول والأشهر، والذي اختاره الطبري وغيره قالوا إن المراد: فإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم إذا تابوا، فالآية كما أنها تخويف ووعيد فهي أيضًا تعطي فرصة أمل؛ أي إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم إذا تابوا، وإن ربك لشديد العقاب إذا استمروا على ظلمهم، وهذا معنى الآية كما اختاره الطبري وجمع من المفسرين.

وقال آخرون إن المغفرة هنا ليس معناها يغفر الذنب أي: يمحى أو يستر أو غير ذلك، وإنما تأتي لغةً بمعنى تأخير العقوبة والإمهال، أي يكون المراد: وإن ربك لذو إمهال للناس بالرغم من شركهم لعلهم يتوبون؛ لكن بالرغم أنه سبحانه وتعالى يُمهل إلا أنه سبحانه وتعالى قد يأخذهم { وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} (الرعد: ٦).

فالمغفرة في المعنى الأول بمعنى مغفرة الذنوب، وفي القول الثاني بمعنى الإمهال. الزمخشري هو أقوى المناصرين للقول الثاني؛ وهو أن المغفرة بمعنى الإمهال، واعترض عليه الإمام الرازي، وحاشية الشهاب بقوة، واعترض عليهم الإمام القاسمي في تفسيره، واشتد عليهم في الرد –وإن كان قد أبدع رحمة الله عليه في تفسير سورة الرعد–.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} (الرعد: ٦).

إذًا من الممكن أن تسأل سؤالًا.. ما هو رد فعل المشركين على الآيات؟ فكان أول رد فعل عجيب أنهم كفروا واستمروا على الكفر، ثانيًا أنهم استعجلوا بالعذاب، ولعلك تتعجب من ردود الأفعال التي اتخذها المشركون ردًا على كل الآيات العظيمة، ثلاث آيات مفصلات تقابل بثلاث مواقف عجيبة! آيات مفصلات من الله سبحانه وتعالى؛ السموات بغير عمد ترونها، آية السموات في البداية، ثم مد الأرض، ثم بعد ذلك في الأرض قطع متجاورات، بأنهم كفروا بربهم، ويستعجلون بالعذاب، والموقف الثالث سنشرحه الآن..

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧)،

{ويقول} أتى بصيغة المضارع، وكذلك {ويستعجلونك} وهذا يدل على أنه قول تكرر كثيرًا، وهذا القول: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧) وهذا القول لم نستنبط أنهم كرروه فقط من الفعل المضارع، وإنما تكرر في القرآن كثيرًا، وقد تكرر في القرآن المكي كثيرًا طلب المشركين لآية حسية، وهذه نقطة تحتاج لتفصيل، ولكن لن أخوض فيها، بل سأحيلكم إلى مراجع، لأن هذا محور من محاور القرآن المكي، وكان يسبب ضغطًا نفسيًا على المسلمين في مكة، أن المسلم كان يكون له أقرباء مشركين يحاول أن يدعوهم إلى الإسلام فيطلب المشركون الدليل على قوله فيقرأ عليهم القرآن، فيطلبون آية حسية، كأن يحول جبل الصفا ذهبًا، أو أن يُفَجِّر الأرض

عيونًا، أو نهرًا يمر من تحت أقدامهم، ثم يقول المشرك للمسلم ألم تَدَّعي أن ربك قادر؟ فلماذا لا تفعل لنا ما نطلب؟!

فكان بعض المسلمين من شدة الحرص يذهبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويسألونه لماذا لا ينزل الله تعالى آية؟

ومن أكثر السور التي عالجت تلك الشبهة، وتناولته في شوط طويل هي سورة الأنعام، فهي من أكثر السور التي عالجت تلك القضية لأنها تؤثر في نفسية الداعية، لأنه قد يفكر بطريقة معينة فيقول من الواضح أن القرآن غير كافٍ، والوحي غير كافٍ، وقد يفكر في وسائل ليرد على نظرياتهم حول دقة الخلق وإتقان الكون، وافتراءاتهم أن الكون خُلق بالصدفة، ويبدأ التفكير أن يبتغي نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء ليقنعهم، الذي لم يقتنع بإحكام الكون وإتقان الوحي لن تجد شيئًا يقنعه ولن يؤمن بشيء، والذي يرى أن الكون عبث لن تصل معه لحل، فهو هروب إلى الظلام لن تؤدي إلى شيء –وقد تحدثت عن هذه القضية في درس "ماذا لو غابت السنة"–.

وكيف أن التسلسل بإنكار السنة يؤدي إلى إنكار الوحي والقرآن ثم يؤدي إلى إنكار وجود الله ثم يؤدي إلى حالة من العبث.. فهي سلسلة.

فالخلاصة.. ماذا ستفعل مع هؤلاء؟

فهم يضغطون، وقد تكرر هذا الطلب مرتين في السورة، والمرتان بصيغة المضارع، وفي آخر السورة في آخر آية استمروا على عنادهم { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا} (الرعد: ٤٣) أبعد كل هذا؟!

فكان الرد { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} (الرعد: ٤٣)، ثم تأتي سورة إبراهيم واستمرار الصراع، ثم تأتي سورة الحجر، وهم يحاولون أن يصنعوا عليك حجرًا ولا بد أن تصدع أي: تكسر هذا الشق، وتزيل هذا الحجر الذي يصنع من حولك حتى لا تُحاصر.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} (الرعد: ٧) هنا يقولون لو أنزلت علينا آية حسية واحدة فقط لكنا آمنا، وملأنا مكة بدموع الندم والتوبة والخشوع، ولملأنا البيت الحرام طوافًا وعبادة! فقط نريد منك آية حسية واحدة فقط!

وهذا أيضًا من أسلوب القرآن أنه أحيانًا يتجاوز الشبهة، ولا يرد عليها بالرغم من أنه قد ورد في مواضع أخرى الرد عليها إلا أنه قد تجاوزها هنا، لأنه هنا يخاطب الداعية.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} (الرعد: ٧). إذًا هذا قولهم، فالقرآن تجاهلهم، الحوار هنا بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يأتيهم بآية واحدة.. فجاء الرد للنبي صلى الله عليه وسلم {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧) فالقرآن خاطب النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: إياك أن تدعهم يصرفونك عن طريقك وعن منهجك، لا تنشغل بما ليس لك، {إنما} بالحصر والقصر، {أنت منذر} لست تخلق لهم آيات، وتخترع الآيات الحسية، أما رد لماذا لا تأتيهم بآية حسية؟ فهو مبثوث في القرآن، لكن هنا في سياق عناد فتجاهلهم القرآن. ومهم جدًّا أثناء الرد على الشبه في المناظرات وغيره معرفة هل الشبهة المطروحة عنادًا أم استفهامًا، وهذا أمر هام جدًا في النقاشات أن تُشَخِّص السائل، هل هو جالس على كرسي المتعلم أم السائل أم المستفهم أم المعالج أم الناشر للفتنة والناشر للبدعة؟ لذلك ليس لكل سؤال نفس الإجابة لو صدر من أشخاص مختلفين حتى ولو كان سؤالاً واحدًا، وإنما لكل شخص إجابة.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} (الرعد: ٧) القرآن مختلف، هم يريدون آية حسية، ولو أنزلت آية حسية ولم يؤمنوا بها سوف يعجل لهم العذاب، فعدم الإجابة بآية حسية رحمة لهم، وهذا مبثوث في القرآن أيضًا.

من قال أنه لو أنزلت آية حسية سوف يؤمنون بها؟ وإنما سوف ندخل في تسلسل.. ينزل لهم آية حسية، فيقولون لا لقد سحرتنا، وجعلت أعيننا ترى ما تريد، { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)} (الحجر: ١٤-١٥) فلو فتح لهم بابًا في السماء ورُفِعوا ثم نظروا إلى السماء ونزلوا لقالوا: هل تسخر منا؟ إنه سحر، ولو قالوا نريد الصفا ذهبًا فأجابهم لكذبوه، وقالوا إنه مجرد نحاس!

فالمراد أن المعاند مهما فعلت له لن يرضى، ولن يستجيب.

فكان الأيسر لهم أن يأتوا بقرآن، فالنبي صلى الله عليه وسلم تحداهم أن يأتوا بمثله ولو فعلوا لانتهت القضية، بدلاً من الدخول في صراعات وقتال وهجرة، انهوا التحدي وأتوا بمثل هذا القرآن.. أبو لهب يسلم مثلاً!

وهذا الرد قاله كثير من العلماء الذين تكلموا في الإعجاز العلمي، فبدلاً من الدخول في جدالات طويلة أثبتوا أن الأمور الغيبية المذكورة فيها خطأ.

لماذا لم يأتوا بسورة؟ فالآية واضحة، فلما عاند الآية التي من جنس إتقانه –وهي اللغة–، وإن كان بعض العلماء رفض مسألة أنه لا بد للآية أن تكون من جنس إتقانهم، وإن كان هو القول الأشهر ولنكمل عليه.

فمهما وصفنا مدى إتقانهم للغة، كانت حياتهم قائمة على الشعر، مزاحهم بالشعر، حياتهم قائمة على فصاحة اللغة، وليس الإعجاز في القرآن من خلال نظمه فقط –ولعلنا نتطرق للحديث حول هذا الموضوع في درس "مفارقة الأسلوب القرآني للخطاب البشري"–، فليس الإعجاز فقط في النظم القرآني، ولكن المواضيع التي أتت في القرآن في حد ذاتها غريبة عليهم وقوية، والطرح مختلف، ومن يقرأ في كتب إعجاز القرآن ينبهر!

وتأمل كيف أن العلماء يحاولون التقاط مواضع الإعجاز، لذلك رفض الإتيان بآية حسية ليس فقط عدم التعجيل بالعذاب، وإن كانت هذه حكمة هامة، لكن أيضًا القرآن كافٍ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطِيَ ما مِّثله آمَن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[٢] متفق عليه.

أي أن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم مختلفة تمامًا أو أن آية النبي صلى الله عليه وسلم وبرهان النبي صلى الله عليه وسلم كان مختلفًا، يحتاج إلى إعمال فكر وعقل يسمع، فيتأمل في الكلام، فيجد أن الكلام موافق لفطرته، موافق لنفسه، يسد جوفًا بداخله، فيقبل على هذا الكلام.

فهو ليس آية مُلجِئة يحتاج أن يرى مثلاً ناقة تخرج من الصخر، بل ماذا فعل الذين رأوا الآيات السابقة؟!

فلا تستجب لضغط المشركين في طلبهم لآية حسية.

---

[٢] [عن أبي هريرة:] ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلّا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وحْيًا أوْحاهُ اللَّهُ إلَيَّ، فأرْجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تابِعًا يَومَ القِيامَةِ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٨١ • [صحيح]

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} (الرعد: ٧) فيقول الله تعالى للنبي: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ} (الرعد: ٧) فوظيفتك هي الإنذار.. بمَ ينذرهم؟ بالوحي { إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} (الأنبياء: ٤٥) ، {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} (ق: ٤٥)، إذًا دورك أن تنذر بالوحي، ولا تتخلى عن هذه الآيات.

{وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} (الرعد: ١) هل تريدون آية أخرى؟! لا؛ إنما أنا أنذركم بهذه الآيات.

هل معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لديه آية حسية؟ لأن هناك بعض الناس يأخذون مثل هذه الآيات، وينكرون الآيات الحسية والأحاديث بالرغم من أنها في البخاري ومسلم، لا بل هناك آيات حسية كثيرة؛ لكن إما أنه لم يتم بها التحدي على قول، أو أنها لم تكن مشهورة، أو أنهم أنكروها كما أنكروا غيرها، كما وصف لهم النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى ثم رفضوا وأنكروا في حادثة الإسراء والمعراج.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧) ما معنى { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧)؟ هناك أكثر من قول:

☚ القول الأول:

ولكل قوم هاد: أي هادٍ واحد، وهو الله؛ لأن هاد هنا أصلها (هادي)، أي: ولكل قوم هادي وهو الله، فأنت دورك الإنذار، ولكن الذي يهدي هو الله.

فبالتالي لا ترهق نفسك معهم، أنت قم بدورك، وسبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

☚ القول الثاني:

أن الله تعالى اختار لكل قوم من يقوم بهدايتهم، فاختارك لهؤلاء القوم بهذه المعجزة لأنها تناسبهم، واختار موسى عليه السلام بمعجزة تناسب قومه، واختار عيسى بمعجزة تناسب قومه، فمن اختيار الله سبحانه وتعالى أنك أنسب من يبعث إلى هؤلاء، وهذا الوحي هو أنسب ما يرسل به إليهم.

{فلكل قوم هاد} فمجيئك إليهم باختيار الله، فإن لم يؤمنوا فسيأتي آخرون، وستكون أنت هاديًا لهم.

ثم بعد أن انتهى من { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧) قال:{الله}. { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ } (الرعد: ٨) تمامًا مثل بداية السورة تتناقش معهم، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (الروم: ٦) ، ثم فجأة! الله.. {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} (الرعد: ٢).

فهنا تشعر أنها وقفة أخرى مثل الوقفة الأولى.

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨)

هذا ما جعل المفسرون يقولون إن هناك نقلة في السياق، فما العلاقة؟

قالوا هنا أن العلم إما مرتبط بـ {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧)، أو مرتبط بـ {ويستعجلونك} (الرعد: ٦)، أو مرتبط بـ {وإن تعجب} (الرعد: ٥)، أو مرتبط بأول شيء {وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} (الرعد: ١).

ما أقوله الآن هو إثراء للمعاني القرآنية.

{الله يعلم}.. هنا الكلام عن صفة العلم، أما الكلام السابق كان عن القدرة المطلقة، هنا علم مطلق شامل، فصفة العلم هنا بعضهم قال إنها مرتبطة بـ {هاد}، أو {ويستعجلونك} (الرعد: ٦)، أو {وإن تعجب} (الرعد: ٥) أو {وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} (الرعد: ١) أي: إنزال الكتاب.

فإذا كانت مرتبطة بـ {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧) أي: فهو الله الذي يعلم من الذي يستحق الهداية ومن الذي يستحق الضلال.

وهذا أبسط الأقوال والذي مال إليه الزمخشري، أي أن الله تعالى هو الذي يعلم مصالح العباد.

أما إذا كانت مرتبطة بـ {يستعجلونك} فالمراد أن الله تعالى يعلم متى ينزل العذاب.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} (الرعد: ٦).

فلو قلنا إن السيئة هي الاستعجال بالعذاب، أي أن الله يعلم متى يكون العذاب، فليس هذا شيئًا تختاره أنت، أيضًا بالنسبة للمسلم المؤمن أحيانًا يستعجل على عذاب الظالم، لكن الله سبحانه وتعالى وحده يعلم متى ينزل هذا العذاب؛ لأن كل شيء عنده بمقدار.

إذا كانت مرتبطة بـ {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ} (الرعد: ٥) أي: الله تعالى يعلم ما تبعثر من أجسادهم وتفرق لمن أنكروا البعث، فممَ العجب؟ لأن الذي يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد يعلم الأجزاء اللي تفرقت من البدن في البعث.

أو يكون لها علاقة بأول آية {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} (الرعد: ١) مثل قول بعض المفسرين، أن الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها وفي النهاية يدبر الأمر يفصل الآيات، أن من صفات الإله القدير أنه أنزل هذا الكتاب، أيضًا من صفات مُنْزل الكتاب أنه {.. يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨).

فالله الأولى مرتبطة بالله الثانية، والاثنان مرتبطان بإنزال الكتاب، وهذه هي الأقوال الأربعة في تفسير هذه الآية.

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} (الرعد: ٨). {الله يعلم} هنا نجد أن الآيات تركز على علم الله الشامل للكليات وللجزئيات، وعلم الله للأقوال، وعلم الله للأفعال، وسبحان الله هذا من سعة علم الله! وهو ما أشار إليه صاحب الظلال في قول الله سبحانه وتعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} (الأنعام: ٥٩) يقول إنك مهما حاولت أن تصف علم أحد، وتريد أن تُعَبِّر عن سعة علمه، لن يأتي في ذهنك أن تقول أنه يعلم تفاصيل أوراق الأشجار الممتدة في الليلة الظلماء، وهي تسقط ورقة ورقة، هو يعلمها سبحانه وتعالى، أو هذه الحبة التي نزلت في ظلمات الأرض في وقت في الليل الله يعلمها!

فالقرآن يتكلم بسعة من خارج طاقة الإنسان، فلو أردت أن تقول أن الله يعلم كل شيء تأمل الآية كيف عبرت عن المعنى {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ} (الرعد: ٨)، ولصاحب كتاب دراسات قرآنية هنا على هذه الآية بحث جميل يقول: "وكأن هذه الكلمة فقط {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ} (الرعد: ٨)، قامت بإحصاء لكل البشر، وإحصاء لكل الحيوانات، وإحصاء لكل النباتات أولاً، ثم بعد

ذلك فصلنا الذكور عن الإناث، ثم دخلنا داخل كل أنثى عندها رحم، ثم نظرنا داخل الرحم، ثم وجدنا جنينًا فنظرنا لنوع الجنين، ومواصفات الجنين، ومستقبل الجنين، وصفاته!".

من الذي يعلم كل هذا في لحظة؟! الله.

تخيل في لحظة أن الله تعالى ينظر إلى الكون، بينما لو أراد البشر ذلك قد يستغرق منهم عشرات السنين ليحصوا عدد البشر لفصل الذكور عن الإناث، ثم نأخذ الإناث على حدة، ثم داخل كل أنثى، ثم مع تقدم العلم سيضاف أعداد أخرى من البشر! ثم الحيوانات، والنباتات...

أما الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك بصورة مستمرة، بصيغة المضارع {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ} (الرعد: ٨) سواء كانت "ما" هنا موصولة أو مصدرية، هنا يوجد خلاف كبير، من أراد فليرجع لأقوال المفسرين.

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} (الرعد: ٨) فهو سبحانه يعلم حمل الرحم، أو يعلم الذي بداخل الرحم، أيًّا كان.

ما تحمل كل أنثى وما تغيض: أي تنقص الأرحام، وما تزداد؛ فبعضهم ربطها بالجنين، فهناك أجنة تنزل إلى سبعة أشهر، أو ثمانية أشهر، أو تسعة أشهر، أو يزيد.

وسبحان الله موعد الولادة حقيقة هو من عند الله، واسألوا الأطباء أخصائي النساء والأطفال تجد أن الموعد قد يأتي فجأة بدون إنذار أحيانًا في ساعات متأخرة من الليل، وأحيانًا في ساعات الفجر، وفي بعض الأحيان قد تحدث مشكلة، ولا بد من تدخل جراحي، فسبحان الله {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨)!

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨) ليس فقط ما في داخل الرحم، لا، بل كل شيء عنده سبحانه وتعالى بمقدار.

استحضارك لتلك المعاني يجعلك تطمئن، استحضارك أن قطرات المطر محسوبة، استحضارك أن كل شيء بقدر يجعلك تطمئن، يجعلك تثق في الله.

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} (الرعد: ٩) الكبير سبحانه وتعالى، المتعال على خلقه، الأعلى سبحانه وتعالى.

{سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} (الرعد: ١٠)

وهذا من أسلوب القرآن، المجمل أولاً غيب وشهادة، الغيب والشهادة: هو ما غاب عن الناس وما ظهر له.

{ سَوَاءٌ مِّنكُم } أي: عند الله،{ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ } (الرعد: ١٠) وهذا على مستوى الأقوال، { وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} (الرعد: ١٠) ، تخيل لو أننا نجلس في مجلس، تجد من يتكلم، وآخر يجلس صامتًا، وهناك من يفكر، وشخص يشعر بالملل، وغيره يرتب لمقابلة أصدقاء، وهكذا.. تجد أن الحاضرين لا أحد يعلم بسرائرهم إلا الله وحده –اللهم استرنا جميعًا وارزقنا الإخلاص– والله أعلم بنية المتكلم، الله أعلم بما يدور في ذهنه، كل كلمة أنت تقولها ما هي نيتك من ورائها الله وحده يعلم ذلك.

{ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } (الرعد: ١٠) ، {مُسْتَخْفٍ بِّاللَّيْلِّ} هو في الأصل السير بالليل كافٍ، ولكنه أيضًا يحاول التخفي بالليل، ولم يقل مختفٍ، وإنما قال مستخفٍ أي بالغ في الاستخفاء، وفي الليل.. هذا هو المشهد الأول.

{وَسَارِبٌ بِّالنَّهَارِّ}، السرب: كما قال كثير من المفسرين من علماء اللغة اختاروا أن الأشهر فتح السين وهو السير في الطريق أثناء النهار أمام الناس، فهو ليس مستخفيًا، وإنما يسير في طريق واضح في قمة الوضوح، مثله عند الله تعالى تمامًا كَمَن هو مستخفٍ بالليل، وفي قمة الاستخفاء.

علماء اللغة وقفوا كثيرًا عند هذه الآية، وقول الله تعالى: { سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ } (الرعد: ١٠) فقالوا هما شخصان.

{ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} (الرعد: ١٠) فكان من المتوقع أن يقول الله تعالى ومن هو سارب بالنهار فلماذا قال الله تعالى {سَارِبٌ بِالنَّهَارِ} بدون إضافة من؟

هنا نجد بحثًا لغويًا طويلًا، ولكن قال بعضهم أن المقصود بقوله: {مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ} (الرعد: ١٠) المراد به نفس الشخص السارب بالنهار، عكس الذي أسر القول وجهر، فهما شخصان مختلفان، إنما المستخفي هو نفس الشخص الذي اختبأ ليلاً، وسار نهارًا.

ويقول ابن عباس في الأثر الرائع يقول عن هذه الآية: "هو صاحبُ ريبة – يفعل معصية في الليل– مستخفٍ بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم."

لي صديق سُرقت منه حقيبته، وبعد الاطلاع على كاميرات المراقبة شاهد السارق بعد أن كان يتخفى أثناء السرقة، بعد أن أخذ الحقيبة حملها بمنتهى الثقة، وكأنه لم يفعل شيئًا ليحاول إقناع الناس أنها ملكه!

فأحيانًا تجد من أمامك يظهر بمظهر الثقة، ويخاطبك خطاب الواثق، ويتحدث عن الأمانة، وهو في الحقيقة كاذب ومحتال!

فالواثق من نفسه في النهار الذي كان مستخفيًا بإثمه ليلاً لا يخفى على الله تعالى، وهذا قد ينطلي على الناس لكن ليس على الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك، مهما حاولت أن تظهر بمظهر الثقة أنك لم تفعل، فالله يعلم ما بداخلك، بل من قدرته –نسأل الله السلامة والعافية والستر فكلنا أصحاب ذنوب– من قدرته قد يظهر ما تُخفيه رغمًا عنك على فلتات لسانك، أي أنت الذي تفضح نفسك!

فسبحان الله! هذا من قهره للإنسان أنه يعمل العمل، ويحاول أن يستخفي هو يفضح نفسه، ثم يندم على أن فضح نفسه، وهذا من قهر الله له.

{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} (الرعد: ١١).

**إن شاء الله نتكلم عن تفسير هذه الآية في المرة القادمة.**

**سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.**